



## العرب اليوم بين خانقين

د. عاقر عبد زيد

باحث واكاديمي من العراق



لقد عشنا في ظل الآخر بين مقلدين ورافضين، بين الليبراليين والاسلاميين، لقد تقبلنا الآخر وانشطارا ته "الليبرالية" إذ انفتحت الدولة بإدارتها ومنتفضيها إلى تقبل الآخر عبر مشروعها التحديثي التقني وليس النهوضي على الطريقة العثمانية عبر استعارة سلبية تخدم رأس النظام تحول فيها العرب إلى نسخ من الآخر يعيشون إشكالاته ورهاناته وكأنها إشكالاتهم ورهاناتهم وكأنهم رجع الصدى لما صدر عنه منذ زمن .

أخذ الخطاب المعارض خطاب الاشتراكي / الماركسي الذي عاش هو الآخر رهان الآخر واستورد منه العنف الثوري ونشر الايديولوجية المعارضة للآخر فظهر منتفضين يحاولون إثبات مدى مادية هذه الحضارة في ردهم على من يريد أن يصورها بالفيبية ويميزونها عن المركزية الغربية لهذا ظهرت أطروحات تعيد قراءة التراث بحثاً عن الجوانب المادية لإثبات مادية التراث وعقلانيته .

من جهة أخرى ظهر خطاب الهوية الإسلامي الذي طرح مفهوم الاسلامة ودعا إلى قراءة التراث في ضوء الظروف الراهنة ورهانات الصراع مع الآخر المحتل أو المتسلط العسكري الفاسد للشرعية بما يطرحة من أفكار هي خليط من الاشتراكية والقومية والطوباوية - المستقبلية .

انفتح هذا الخطاب الإسلامي على التراث في إعادة قراءة الماضي بوصفه الأصل، فهو إما يكرر ذاته في صيغة العود الأبدي ، حيث البنية الميتة للتاريخ بوصفه حركة تكرار لا تنفذ في زمن برزخي متعال على نثرات الزمان ونقائضه باتجاه حقيقة متعالية قابلة للتكرار ( فردوس المفقود: الخلافة ) أو أنه محكوم بالسير نحو العدم ( الموت ، والخلص ، الثواب ) أو هو في السياق الإسلامي حركة تكوّن دائم من لحظة النجاة الأولى - هكذا وصفها عبد الرزاق عبيد فهذا الوعي يرفض الآخر بوصفه النقيض، لهذا عمل على تكفير امتداداته وعمل على رفع شعار الاسلامة للخطاب الرسمي والشعبي وطرح الثورة طريقاً لأية سلطة من أجل بناء تجربته الاسلاموية .

هذا المثقف إذا ما تعامل مع الديمقراطية فإنه يتعامل معها بوصفها طريقة أو ذريعة من أجل الوصول إلى السلطة، فهو مثقف الالتزام الذي يعتبر الديمقراطية لعبة شكلية للبرجوازية للسيطرة لهذا فهو لم يصل بعد إلى مستوى المثقف الحديث الذي يحترم الاختلاف والتعدد الذي يحترم الشرعية الدستورية والديمقراطية بوصفها طريقاً إلى السلطة القائمة على العدالة والحرية والشرعية الدستورية المدنية .

إن هذه المنظومة سواء كانت أصولية بطابعها التبشيري أو ثقافة الستينات المشبعة بهواجس التعبئة والتجبيش والمجردة عن الرغبة في الموضوعية والهدوء المعرفي وتوازن الفكر ناهيك عما ابتليت به من منطق الحسم والنهائيات والأخلاقيات التي تعوم الأزمنة الحقيقية وتنشغل بالتصفيق لشعارات انصاف الألهة بينما لا تكاد تجد أي أزمة سوى إن الآخرين لا يشاركونها التصفيق للمزاعم المقدسة .

فبال هذا النمط أخذ اتجاه آخر يغالب عزلة ويرغم وحشة تغريده المنفرد خارج الأسراب، فرفض آلية الجاهزية وثار على منطق الحتميات السحرية وطالب بالافاقة من أحلام البوتوييا والتعامل بجندية أكبر مع الحقائق كي يتاح للتصور أن يتحرر من المثل والادوام، وهذا يتحقق بفعل القراءة النقدية التي تقوم على الكشف من أجل إعادة تشكيل الفكر والواقع كما يقول "علي حرب" ( إننا إزاء صناعة للذات تتيح للمثقف المستقل في ميدان الفكر الخروج من عجزه بحرق السياقات الموضوعية وزحزحة المشكلات العالقة وتعدي الثنائيات الخادعة للمشاركة الفعالة المثمرة في صناعة المشهد الفكري على المسرح الدولي ) وبالتالي فإنها تخلق منظومة ثقافية قادرة على مواجهة وتحمل مسؤولية مواقفها وتصرفاتها ولا تلقي بلائمة ذلك على أعداء وخونة وهميين تجعل منهم شماعة لتعليق الأخطاء، فهذا التصور يستهدف إزالة الاكراهات التي تحط من قيمة الإنسان وفردانيته وتؤكد على تساوي الجميع في إنسانيتهم وتلغي هذا التمرکز حول الفرد المقدس الخارق سواء كان سياسياً أو ثقافياً وبالتالي تغادر ذلك

الحلم الطفولي الذي استولى على المرء في ظروف المعجز وغياب الثقة بالنفس إلى درجة يخفق عندها في التعبير عن ذاته ويلهث وراء الرمز كي يقدم له فروض الطاعة فينوب عنه في التعبير عن تلك الذات الحاملة المهشمة .

وهذا يتطلب رؤية نقدية وجذرية وشمولية هذه من سمات الفكر التغييري، الفكر المتوجه لنفي الواقع، للتشاكل معه، لمنازعة باستمرار من أجل الخروج عليه عن طريق تأسيس مستمر وعميق الوعي تجاه الواقع وتجاه المستقبل .

لن نحن اليوم بعد أن تغير سر اللعبة واستراتيجية العولة وانهارت دولة الأمة وظهرت العولة وانفجارتها التي تهيم من خلالها دولة أو كتلة من الدول ورثاها شركات متعددة الجنسيات تريد فتح الحدود والفضاء على الهويات والمصالح القومية والوطنية والإسلامية وطرح رهان ثقافي وسياسي وحضاري جديد .

وبدأ ضغط الدول النامية على الدول الممانعة أو الدول المارقة بالتعبير الأمريكي في ما يعرف بالحرب على الإرهاب أو دمقرطة المنطقة ، أو تقسيم المنطقة طائفيًا ، أو تقسيم الدول إلى دول معارضة / أو مارقة توصم بأنها محور للشر في ثنائية مانوية جديدة بطريقة اليمين المتطرف وكأننا في صراع بين الخير والشر ، سرديات أسطورية أعيد العمل بها فتحوّلت إلى فلسفة للتاريخ الجديد عبر ذهنية الصراع وخلق صورة نمطية للعدو من أجل تبرير قتلته بوصفه عقبه في طريق الديمقراطية والتقدم الليبرالي . هذا الأمر جعل العرب اليوم بين خانقين:

الأول - الضغط الدولي على سلطات تلك الشعوب عبر مؤسسات المجتمع الدولي تحت أشكال متنوعة سوفتها المؤسسات الإعلامية والأمنية من أجل تبرير كل الضغوط بحق هذه الدول أو تلك مما جعل صورة الدولة تتأزم أمام هول الدول المهيمنة على المسرح العالمي .

والثاني - هيمنة تلك الدول المحلية على أبناء بلده دون سواهم مما جعلنا نواجه خانق حضاري جهنمي يجعل المواطن في بغداد والحلة والرباط والجزائر بين خانقين الهيمنة الأجنبية والدوائر الدولية والدول العربية ودوائرها ومخابراتها التي تتخذ من كل هذا غطاء لهاجمة خصومها واتهامهم بالخيانة والإرهاب إذا ما لمست لديهم الرغبات

بالتحول الديمقراطي والتحديث الدستوري ❖

كما ان توظيف التاريخ الرفديني بهذا الشكل الممتد إلى اعماق العصر السومري، والأكدي، والبابلي، والأشوري، والسرياني، والاسلامي، المعروض جميعاً في حزمة واحدة تضمها رواية واحدة لم يكن له نظير أو مثيل في النصوص العراقية التي تسنى لنا الاطلاع عليها لغاية يومنا هذا .

لقد كان للتاريخ العراقي والعالمي حضوره المتميز في الكثير من الأعمال الإبداعية العراقية ولكنها استثمرت فترات بعينها أو توقفت عند عصور بعد ذاتها دون ربطها بالجسد الكامل للتاريخ العراقي بهذا البعد البانورامي المتمثل في هذه الرواية .

كما ان الرواية استثمرت وبشكل عضوي الثروة الموسيقية في التراث النغمي العراقي والعالمي على حد سواء، تاركة للإلماعة الموسيقية أن تنطق بما لا تريد الكلمة البوح به، مما يمنح المؤلف قصب الريادة في هذا المجال ايضاً . ولقد كان للقيارة السومرية حضور متميز كرمز موسيقي وكرمز معنوي وحضري في هذه الرواية . هذه القيارة اشبه بالمليودي الذي يجمع كثير من المسارات اللحنية الثمينة للتاريخ الرفديني . ونقولها بكل امانة إن الروائيين الذين ادخلوا الاستعارات الموسيقية في الأدب العالمي كثيرين، لم يفلح منهم سوى معدودين يقف على رأسهم ليوتولستوي وجون شتاينبيك الأميركي ( في رواية اللؤلؤة ) والروائي الألماني هيرمان هسه ( في لعبة الكريات الزجاجية ) .

أما في الرواية المكتوبة بالعربية، فأكد أجزم إنني لم ألق على نص روائي يصيب نجاحاً من الإلماعات والتلميحات والاشارات الموسيقية بقدر ما أصابه نص روائية ( في انتظار فرج الله القهار ) حيث ان هذه الاشارات عضوية، وضمن سياقاتها، وغير مقصنة، ولم تأت رغبة من النص في استعراض المهارات الموسيقية .

ويكاد يكون الكتاب، في إحدى مستوياته وأبعاده، قطعة موسيقية فيها الكثير من ملامح موسيقى القديس الجنائزي الذي لحنه موزارت قبيل وفاته، يتداخل معه في بعض سكتاته الموسيقية شيء غير قليل من بآليه بحيرة البجع، لكنها تمر جميعاً عبر مصفاة النشيد العراقي غير المطابق لنشيد الفرحة ODE TO JOY الذي ألفه فريدريك شيلر ولحنه بتهوفن في سيمفونيته التاسعة . إن المسار اللحنى موصول بصوت الكمان المرتجف الذي يمثل صوت شهرزاد في رائعة كورساكوف، الكمان الخائف من الفتك والفرد الذكوري الشرقي الذي يراه القارئ ويذوقه ويشمه ويلمسه ويسمعه عندما يقرر قائد السرية أن يختصب الفتاة الأشورية الشجاعة، فترفض بكل إباء وعنفوان، وتلتقي الكروسين برحابة صدر وتتلقى نيران القداحة الانكليزية، ونسمعها تحترق، ونشم رائحة احتراقها، ونرى منظر احتراقها، ونلمس احتراقها، ويختلط دخان حريقها طعم افواهنا ونلمس تفحم الفتاة البريئة لمس اليد . اسمها شميرام . فتاة آشورية لم ترض أن تكون في غير موقع العز والشرف . وحينما يكتب المؤلف في الجزء الثاني عشر من الرواية هذه العبارة السهلة الممتعة .

( ليس ثمة من نهاية ... )

فإنه يجعل التيار الصاعق يسري في القارئ مجدداً .

النص مفتوح على أكثر من أحتمال، إما أن تكتمل دائرة التناسخات وتنتهي دورات إعادة ولادة الغناء، وإما أن يولد الألم مجدداً، وإما أن ينتهي هذا الدور من الفواجع عندما تكون الكلمة لفرج الله القهار لا لشهريار ولا لقيصر ولا لذي الرأس الأسدي والبدن النسري .

وعندما نقرأ الجزء الثاني عشر ونكمله، ننتيقن أننا يتعين علينا ان نعيد مرافقتنا للسيدة الربيعة المصرية على حضور قداس الفصح في الكنيسة القديمة لا في الكنيسة الجديدة لأن صوتاً أمرها ان تصلي هناك . ونعيد امعان النظر في فتور حماسة ابنها للقاء فرج الله القهار في النهى الألفيني الكائن داخل فندق العالم الجديد .

وخلاصة القول، إن هذا النص يستروائي هوي بعنه الروائي في انتظار من سيلتقط الإشارة . وبالطبع، يعث به المؤلف إلى العراق أرضاً وشعباً وتاريخاً . واجزم ان العراقي الحقيقي سري نفسه فيه . وحسب المرء ان يتصرف على ذاته عندما يرى انعكاس ذاته في مرآة الحقيقية ❖

آذار ٢٠٠٧

تخطيطات العدد للفنان: ليث علي يوسف

